الأساس العقائدي للأخلاق

The Doctrinal Foundation of Ethics

م.د. محمد عبد علي كاظم

Mohammed Abdul Ali Kadhim

جامعة بابل / كلية العلوم الإسلامية

University of Babylon / College of Islamic Sciences

mhmdalfhd1989@gmail.com

يتناول هذا البحث الأساس العقدي للأخلاق، من خلال بيان الصلة الوثيقة بين العقيدة الإسلامية والمنظومة الأخلاقية، ودراسة أثر الإيمان في تشكيل القيم وتوجيه السلوك الإنساني. كما يسلط الضوء على الدور المحوري الذي تؤديه العقيدة في بناء المرجعية الأخلاقية وترسيخ المعايير التي تضبط تصرفات الفرد والمجتمع.

وقد جعل الإسلام العقيدة الركيزة الأولى التي تنبثق منها الفضائل وتستمد منها الأخلاق قوتها واستمرارها؛ فالعلاقة بين العقيدة والأخلاق علاقة تلازم وتكامل، إذ تمنح العقيدة القيم الأخلاقية الثبات والاستقرار وتحفظها من التبدل تبعًا للأهواء أو المصالح المتغيرة. ومن هنا حظيت الأخلاق في الإسلام بمكانة رفيعة، تجلت في جعل تهذيب الأخلاق وإتمام مكارمها من المقاصد العظمى للرسالة النبوية، كما أكدت النصوص الشرعية فضل الأخلاق الحسنة وأثرها العظيم في رجحان ميزان الحسنات يوم القيامة.

وتبرز أهمية الأخلاق كذلك من خلال كثرة الآيات القرآنية التي تناولت هذا الجانب، حثًا على التحلي بالفضائل، وثناءً على أهلها، وتحذيرًا من الرذائل وآثارها. وفي المقابل، تمثل العقيدة الصحيحة حاجة إنسانية أساسية تفوق في أهميتها الحاجات المادية؛ إذ بها تحيا القلوب، وتستقر النفوس، وتستقيم الحياة الفردية والاجتماعية. ومن دونها يفقد الإنسان البوصلة التي توجه سلوكه، فتسود الفوضى الأخلاقية وتغلب شريعة القوة والمصلحة، ويقع الأفراد في الحيرة والاضطراب والشقاء، مهما توفر لهم من أسباب الرفاه المادي ومتاع الحياة الدنيا.

The Doctrinal Foundation of Ethics

Research Abstract:

This research examines the doctrinal foundations of ethics by exploring the close relationship between Islamic creed (Aqeedah) and the moral system, as well as the role of faith in shaping values and guiding human behavior. It highlights the central function of creed in establishing ethical reference points and providing the standards that regulate individual and social conduct.

In Islam, creed constitutes the primary foundation from which virtuous morals emerge and derive their strength and continuity. The relationship between creed and ethics is one of integration and interdependence, as faith provides moral values with stability, consistency, and protection from manipulation by personal desires or changing interests. Consequently, ethics occupies a prominent position in Islam, reflected in the Prophet Muhammad's mission, which emphasized the cultivation and perfection of noble character. Islamic teachings further stress the significance of good morals and their substantial weight in the balance of deeds on the Day of Judgment.

The importance of ethics is also evident in the numerous Qur'anic verses that encourage virtuous conduct, praise those who embody moral excellence, and warn against immoral behavior and its consequences. Moreover, sound creed fulfills a fundamental human need that surpasses material necessities, as it brings spiritual vitality, inner peace, and social harmony. Without a correct belief system, individuals lose the moral framework that guides their actions, leading to ethical disorder, confusion, and social instability, regardless of the material comforts and worldly pleasures they may possess.

المقدمة

تُمثّل العقيدة الأساس الذي تنبثق منه تصرفات الإنسان وسلوكياته المختلفة، فهي الإطار الفكري والإيماني الذي يوجّه أفعاله ويحدد مواقفه في الحياة. فمتى استقرت في النفس عقيدة صحيحة تدعو إلى الصدق والعدل والإحسان والأمانة والتسامح، انعكس أثرها بصورة طبيعية على سلوك الفرد وتعاملاته، فلا يكون هناك تعارض بين ما يؤمن به وما يمارسه في واقعه. ومن ثمّ فإن الأخلاق التي يتحلى بها المسلم ليست مجرد سلوكيات مكتسبة أو عادات اجتماعية، بل هي ترجمة عملية لمعتقداته وقناعاته الدينية، ودليل ظاهر على قوة إيمانه وصدق التزامه بما يؤمن به.

ولهذا ترتبط العقيدة بالأخلاق ارتباطًا وثيقًا لا يقبل الانفصال، إذ تتكاملان في بناء شخصية المسلم وتوجيه مسيرته. فالعقيدة تمد الأخلاق بالدافع والقوة والاستمرار، كما تؤدي دور الرقيب الداخلي الذي يحول بين الإنسان وبين الانجراف وراء الشهوات المحرمة أو الوقوع في السلوكيات المنحرفة. ومن هذا المنطلق تُعد العقيدة المصدر الأول للالتزام الخلقي والضامن الحقيقي لاستقامة السلوك.

ويظهر أثر العقيدة في مختلف جوانب الحياة اليومية؛ في علاقة المسلم بأسرته وأقاربه، وفي تعامله مع جيرانه وأصدقائه، وفي تعامله مع من يختلف معهم في الرأي أو الفكر، بل وحتى مع خصومه. فكلما رسخت العقيدة في القلب ازداد أثرها في تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك. ولذلك يمكن تشبيه العلاقة بين العقيدة والأخلاق بعلاقة الشجرة بثمارها؛ فالعقيدة هي الأصل الثابت والجذر الراسخ، أما الأخلاق فهي الثمرة اليانعة التي تكشف عن سلامة الأصل وجودته. وهذا مصداقاً لقول النَّبي(صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم): ((أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا)). (حنبل، ٢٠٠١م: ٧ / ٢٠٨). يُعَدّ الشمول والتكامل من أبرز خصائص الإسلام ومزاياه، فهو دينٌ يحيط بجميع جوانب الإنسان وحياته، فيرعى شؤون الجسد والعقل والروح، ويوجه السلوك والفكر والمشاعر، كما ينظم أمور الدنيا والآخرة في إطارٍ متوازن. ولذلك ترتبط العقيدة الإسلامية بكل ما يصدر عن الإنسان من أقوال وأفعال، فلا تنفصل عن أي جانب من جوانب حياته. ومن آثار العقيدة الصحيحة أنها تغرس في النفس الفضائل ومحاسن الأخلاق، وتدعو إلى

اجتناب الرذائل ومساوئ الصفات، فتنعكس آثارها بوضوح على سلوك الفرد واستقامته. ولذا جاء هذا البحث ليبين البعد العقائدي للاخلاق الاسلامية وذلك من خلال الاتي:

المبحث الاول: مقدمات وتعريفات، ولقد ضمنته المطالب الاتية:

المطلب الاول: معنى العقيدة والايمان .

المطلب الثاني: علاقة العقيدة بالايمان .

المطلب الثالث: معنى الاخلاق .

المطلب الرابع: مكانة الاخلاق في الاسلام .

المبحث الثاني: الاساس العقائدي للاخلاق . وفيه المطالب الاتية:

المطلب الاول: حاجة الانسان للعقيدة .

المطلب الثاني: علاقة العقيدة بالاخلاق .

المطلب الثالث: الاساس الاعتقادي للاخلاق .

أولاً: اركان الاساس الاعتقادي .

ثانياً: اهمية الاساس الاعتقادي .

ثم انتقلت الى الخاتمة والتي لخصت فيها اهم النتائج التي توصلت اليها ثم قائمة المصادر والمراجع، وقد تم البحث بعون الله وتوفيقة وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

المبحث الاول

المطلب الاول: معنى العقيدة والايمان

أولاً: العقيدة في اللغة: مأخوذة من الفعل (عقد) العين والقاف والدال أصل واحد يدل على شد وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها.

من ذلك عقد البناء، والجمع أعقاد وعقود. قال الخليل: ولم أسمع له فعلا. ولو قيل: عقد تعقيداً، أي بنى عقداً لجاز. وعقدت الحبل أعقده عقداً، وقد انعقد، وتلك هي العقيدة. (الرازي، ١٩٧٩م: ٤ / ٨٦). فالعقد هو الربط، والاحكام، والتوثيق، والشد والتمسك، والعقد نقيض الحل. ومنه عقدة اليمين والنكاح. (المطرزي، ١٩٧٩م: ٢ / ٧٣). قال تعالى: (لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ). (سورة المائدة من الاية ٨٩) فالعقيدة

هي إيمان راسخ يقوم على اليقين الجازم المطابق للواقع، بعيدًا عن الشك والظن، فلا يُطلق وصف العقيدة على أمرٍ لم يبلغ درجة اليقين أو افتقر إلى الدليل الصحيح. أما إذا قام الاعتقاد على أوهام أو تصورات مخالفة للحقيقة، فإنه يُعد من المعتقدات الفاسدة لا من العقائد السليمة. وفي الاصطلاح، تُعرَّف العقيدة بأنها مجموعة من المبادئ والإيمانيات الثابتة التي تستقر في القلب وتطمئن إليها النفس، فتغدو يقينًا راسخًا لا يتطرق إليه شك ولا تردد، مهما تعاقبت الأزمنة وتغيرت الظروف . فإن لم يصل العلم الى درجة اليقين الجازم لايسمى عقيدة. (ترك، ٢٠٢٢م: ١٨ - ١٩). ومن معاني العقيدة أيضاً:

١ - التصديق الجازم فيما يجب لله عز وجل من الوحدانية، والربوبية، والإفراد بالعبادة، والإيمان بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا. (الاصرم، ١٤١٣هـ: ٧), (صوفي، ١٤٢٣هـ: ٩).

٢ - التصديق مطلقاً وعلى ما يعتقده الإنسان من أمور الدين. (المحسن، ١٩٩٧م: ١٥), (صوفي، ١٤٢٣هـ: ٩).

ثانياً: الايمان في اللغة: يُستعمل لفظ الإيمان في اللغة بمعنى التصديق والأمان، وهو مشتق من الأمن الذي يُقابل الخوف. فيُقال: آمن به، أي صدّقه واطمأن إليه، كما يُطلق الأمن على السكينة والطمأنينة وانتفاء الخوف. أما في الاصطلاح الشرعي، فالإيمان هو الإقرار باللسان، والتصديق بالقلب، وقبول ما جاء به الرسول ﷺ من أحكام وشرائع حقًّا وصدقًا. ويشترك المؤمنون في أصل الإيمان، غير أنهم يتفاوتون في كماله ودرجاته بحسب ما يتحلون به من تقوى وخشية لله تعالى، واتباع للحق، ومجاهدة للهوى. (الحنفي، ١٩٨٨م: ٣٣٢).

المطلب الثاني: علاقة العقيدة بالايمان:

أثنى الله تعالى في القرآن الكريم على الإيمان وأهل الإيمان، فقال تعالى: (قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ) (سورة المؤمنون الاية: ١.). يمثل الإيمان عقيدةً راسخةً تستقر في قلب المسلم وتلازمه، فتنعكس آثارها على أقواله وأفعاله وسلوكه. ولا يقتصر الإيمان على مجرد التصديق الباطني، بل يظهر أثره من خلال الالتزام العملي بمقتضيات العقيدة الإسلامية والتعبير عنها قولًا وعملًا. فالعقيدة تُعد الأساس الذي يقوم عليه الإيمان، إذ تستقر في القلب وتوجّه سلوك الإنسان وتحدد مواقفه.

ومن ثمّ فإن الإيمان الحقيقي لا يتحقق بمجرد المعرفة أو الاقتناع الذهني بالحقائق، وإنما يقتضي الانقياد لها والعمل بموجبها. فكثير من الناس قد يدركون الحق ويوقنون به، لكنهم لا

يلتزمون بأحكامه ولا يجعلونه منهجًا لحياتهم، ولذلك لا يُعد هذا التصديق المجرد إيمانًا كاملًا ما لم يصاحبه امتثال عملي يعكس صدق الاعتقاد وثباته. (الاشقر، العقيدة في ضوء الكتاب والسنة: ٢٠), (ترك، ٢٠٢٢م: ٣٠).

لا يقتصر الإيمان على المعرفة القلبية المجردة أو الإقرار الداخلي بوجود الله تعالى، بل هو منظومة متكاملة تجمع بين اعتقاد القلب، وإقرار اللسان، وعمل الجوارح. فالمؤمن الحق لا يكتفي بإدراك الحقيقة والإيقان بها، وإنما يعلنها بلسانه ويترجمها إلى سلوك عملي ينسجم مع ما يؤمن به. ومن ثمّ يقوم الإيمان على العقيدة الصحيحة عبر ثلاثة أركان مترابطة: التصديق الجازم بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بمقتضى هذا الاعتقاد في الأقوال والأفعال.

وعلى هذا الأساس، ترتبط العقيدة بالإيمان ارتباط الأصل بفرعه؛ فالعقيدة تمثل الأساس الراسخ الذي يقوم عليه الإيمان، بينما تمثل الأعمال ثماره وآثاره الظاهرة. فكلما كانت العقيدة سليمة وقوية انعكس ذلك على سلوك المؤمن وعمله، أما ضعفها أو فسادها فيؤثر مباشرة في حقيقة الإيمان وكماله، إذ إن الاعتقاد الصادق لا ينفك عن القول الحق والعمل الصالح. (الاشقر، العقيدة في ضوء الكتاب والسنة: ٢٠ - ٢١), (ترك، ٢٠٢٢م: ٣٠ - ٣١).

المطلب الثالث: معنى الاخلاق:

اختلفت المذاهب والاتجاهات الفلسفية في تحديد مفهوم الاخلاق، ولكن سأقتصر على بعض المعاني والمفاهيم الهامة التي تكون سنداً علمياً لنا في هذا البحث، لذا اقتضى الامر أن نبحث عن معناها من ناحيتين: في اللغة وفي المعنى الاصطلاحي الاسلامي .

الاخلاق في اللغة: جاء لفظ الخُلُق في القاموس المحيط للدلالة على السجية والطبع والمروءة والدين، كما يُطلق على الخِلقة بالكسر بمعنى الفطرة التي يُفطر عليها الإنسان. (الفيروزآبادي، ٢٠٠٥م: ٨٨١).وفي لسان العرب يُفسَّر الخُلُق بأنه الطبيعة التي يُجبل عليها الإنسان، فالخليقة هي طبيعته، والخلقة هي فطرته الأصلية. ويُستعمل الخُلُق، بضم اللام أو سكونها، للدلالة على الدين والسجية والطبع. وقد أوضح ابن منظور أن الخُلُق يمثل الصورة الباطنة للإنسان، أي صفاته النفسية ومعانيه الداخلية، في مقابل الخَلْق الذي يعبر عن صورته الظاهرة. وكلاهما—الباطن والظاهر—قد يتصف بالحسن أو القبح، غير أن الثواب والعقاب يتعلقان غالبًا بصفات الباطن وما يحمله الإنسان من قيم وسلوكيات داخلية أكثر من تعلقهما بالمظهر الخارجي. (الإفريقى،

١٤١٤هـ: ١٠ / ٨٦ - ٨٧).

معنى الاخلاق في الاصطلاح الاسلامي: يعني المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك التي حددها الوحي على نحو يحقق الغاية من نزوله. (المهاج، ٢٠٠٤م: ٥٥). هي مجموعة من السلوكيات والسجايا والطبائع والهيئات التي تتصل بالإنسان، فإذا ما تهذبت واستقامت وصَلُحت انعكس ذلك على أقواله وأفعاله كافة. وعندئذٍ تصبح دليلًا واضحًا وبرهانًا جليًا على قوة الإيمان، وسلامة الضمير، وصدق الالتزام بما يرضي الله عز وجل. (طنطاوي، ١٩٣٨م: ٢٠٥ - ٢٠٦).

المطلب الرابع: مكانة الاخلاق في الاسلام:

وللأخلاق في الإسلام مكانة عظيمة جدًّا، تظهر من وجوه كثيرة منها مايأتي (جامعة المدينة العالمية، ٢٠٠٩م: ٩٨):

أولاً: تعليل الرسالة بتقويم الأخلاق وإشاعة مكارم الأخلاق: جاء في الحديث الشريف عن النبي أنه قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). (البيهقي، السنن الكبرى، ٢٠٠٣م: ١٠ / ٣٢٣).

ثانياً: تعريف الدين بحسن الخلق: فعَنْ النواس بن سمعان الأنصاري. قَال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) عن البر والإثم ؟ فقال: (البر حسن الخلق. والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس) (النيسابوري، ١٩٥٥ م: ٤ / ١٩٨٠). وهذا يعني: أن حسن الخلق ركن الإسلام العظيم الذي لا قيام للدين بدونه.

ثالثاً: من أكثر من يرجح كفة الحسنات يوم الحسنات يوم الحساب حسن الخلق، عن أبي الدرداء أن النبي (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) قال: (مَا مِنْ شَيءٍ أَثْقَلُ في ميزَانِ المُؤمِنِ يَومَ القِيامة مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وإنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرجَةَ صاحبِ الصَّوْمِ والصَّلاةِ). (الترمذي، ٢٠٠٩م: ٤ / ١٠٣).

رابعاً: المومنون يتفاضلون في الإيمان، وأفضلهم في الإيمان أحسنهم أخلاقا، كما قال (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم): (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقًا). (الترمذي، ٢٠٠٩م: ٣ / ٢٠).

خامسًا: إن المؤمنون يتفاوتون في الظفر في حب رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم) وقربهم منه يوم القيامة، وأكثر المسلمين ظفراً يحب رسول الله والقرب منه من حسنت أخلاقهم، كما قال: (إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا). (الترمذي، ٢٠٠٩م: ٤ / ١٢).

سادساً: إنّ حُسن الخلق يُعدّ شرطًا أساسيًا للنجاة والفوز بالجنة، ولا يُغني عنه أي عملٍ صالحٍ آخر مهما عظم، حتى وإن اقترن بالصلاة والصيام والصدقة. فقد ورد في الحديث أن امرأةً كانت تُذكر بكثرة عبادتها من صلاة وصيام وصدقة، إلا أنها كانت تؤذي جيرانها بلسانها، فقال النبي ﷺ: «لا خير فيها، هي في النار» (حنبل، ٢٠٠١م: ١٥ / ٤٢١)، مما يدل على خطورة سوء الخلق وأثره في إبطال أثر العبادات.

كما كان النبي ﷺ، وهو أكمل الناس خُلُقًا، يحرص على سؤال الله تعالى أن يهديه لأحسن الأخلاق ويثبّته عليها، وكان من دعائه في قيام الليل: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت» (النسائي، ٢٠١٨م: ٢ / ٢١٥ - ٢١٦)، مما يؤكد أهمية تزكية الأخلاق وطلب العون الإلهي عليها.

وتتجلى مكانة الأخلاق كذلك في كثرة الآيات القرآنية التي تناولتها، حيث أمرت بالفضائل ومدحت أهلها، ووعدت بالثواب، وفي المقابل نهت عن الرذائل وذمّت أصحابها وتوعدتهم بالعقاب. وهذا التكرار في النصوص القرآنية يدل على عظيم أهميتها، خاصة وأنها وردت في السور المكية والمدنية على حد سواء، مما يعكس شمولها واستمرار ضرورتها في حياة المسلم، ويجعلها قريبة في مكانتها من قضايا العقيدة من حيث العناية والتأكيد.

المبحث الثاني: الاساس العقائدي للأخلاق

إنّ شأن العقيدة عظيم وخطرها جسيم، إذ إن سلوك الإنسان في الغالب هو انعكاس مباشر لما يحمله من أفكار وما يعتنقه من معتقدات وما يدين به من دين. ولذلك فإن أي خلل يطرأ على السلوك إنما يرجع في جذوره إلى اضطراب في العقيدة وضعف في البناء الإيماني. كما أن الإيمان الصحيح هو أساس الأخلاق، وأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا؛ فمتى استقرت العقيدة في النفس انعكس أثرها على السلوك، فتهذب الأخلاق وتستقيم تبعًا لها.

فالعقيدة الصحيحة تدفع صاحبها إلى التحلي بمكارم الأخلاق كالصدق والكرم والحلم والشجاعة، وفي الوقت نفسه تردعه عن الرذائل كالكذب والبخل والطيش والجهل. وقد جعل الإسلام العقيدة منطلقًا أساسيًا للأخلاق الفاضلة، إذ إن ارتباط الأخلاق بالعقيدة ارتباط وثيق يدركه كل متأمل في تعاليم الإسلام، وهو ما يضمن ثبات القيم واستقرارها ويحفظها من التغير والعبث، لتغدو الأخلاق في النهاية ثمرة طيبة وشجرة مثمرة نابعة من أصل العقيدة الراسخة.

(السقاف، ١٤٣٣هـ: ١ / ٤).

المطلب الاول: حاجة الانسان للعقيدة:

إن حاجة الإنسان إلى العقيدة تفوق حاجته إلى الطعام والشراب، إذ بها تُبعث الحياة في القلوب، وتستقر النفوس، وتستقيم الأبدان، وينعم الفرد والمجتمع في آنٍ واحد. أما غيابها فيقود إلى حياة مضطربة يغلب عليها الطابع الحيواني، حيث تسود شريعة القوة ويأكل القوي الضعيف، ولا يبقى الفرق بين الإنسان وسائر المخلوقات إلا في الشكل والصورة، ويقع الإنسان في الحيرة والاضطراب والشقاء مهما توافرت له مظاهر الترف والملذات.

ويؤكد التاريخ الإنساني عبر مختلف الأزمنة والأمكنة أن الإنسان لم يعرف يومًا حياة بلا عقيدة أو دين، إذ إن الاعتقاد يمثل عنصرًا أساسيًا في تكوينه النفسي والعقلي. فهو يشبع حاجات العقل في التأمل والتفكير، ويكمل قوة الوجدان بما يمده من مشاعر الحب والشكر والحياء والأمل، كما يعزز قوة الإرادة بما يمنحها من دوافع وبواعث، ويقوي قدرتها على مواجهة اليأس والضعف. وبذلك يتضح أن الاعتقاد ليس مجرد فكرة عابرة، بل هو ضرورة نفسية شاملة تُجسد حاجات الإنسان في مختلف جوانب شخصيته وملكاتها . (جمعة، ٢٠١٥م).

كما أن للاعتقاد آثارًا نفسية على الفرد، فإن له أيضًا وظائف اجتماعية بالغة الأهمية لا تقل شأنًا عن تلك الآثار الفردية؛ إذ إن الحياة الاجتماعية لا يمكن أن تستقيم إلا على أساس التعاون بين أفرادها، وهذا التعاون لا بد له من قانون ينظم العلاقات ويحدد الحقوق والواجبات. غير أن هذا القانون يحتاج إلى قوة معنوية تضمن احترامه في النفوس، وتكفل عدم الاعتداء على حدوده، ولا توجد قوة على وجه الأرض تضاهي قوة الاعتقاد الديني في ترسيخ هيبة القانون وحفظ تماسك المجتمع واستقرار نظامه.

ويرجع ذلك إلى أن الإنسان لا تُدار أفعاله الظاهرة فقط، بل تحكمه قناعة داخلية ومعنى روحي عميق يُسمى العقيدة، فهو يُقاد من الداخل قبل الخارج. ومن ثم فإن القوانين الوضعية والسلطات الظاهرة وحدها لا تكفي لبناء مجتمع مثالي تسود فيه العدالة ويؤدى فيه الحق على وجهه الكامل، إذ إن من يؤدي واجبه خوفًا من العقوبة قد يتخلى عنه متى أمن الرقابة أو ظن الإفلات من الجزاء.

كما أن الاعتماد على العلم والثقافة وحدهما لضمان الاستقرار والرخاء يُعد تصورًا قاصرًا،

لأن العلم أداة مزدوجة يمكن توظيفها للبناء كما يمكن استخدامها للهدم، ولا بد له من توجيه أخلاقي يضبط مساره، وهذا الدور تقوم به العقيدة والإيمان. والإيمان الحقيقي إما أن يكون إيمانًا بالقيم العليا كفضيلة الخير والعدالة والكرامة الإنسانية، أو إيمانًا بمرجعية عليا رقيبة على السرائر، تبعث في النفس الحياء والخشية والمراقبة، وهو الأقوى تأثيرًا في ضبط السلوك الإنساني.

ومن هنا يتبين أن الاعتقاد الصحيح يمثل الضمان الأهم لاستقامة العلاقات الاجتماعية على أسس العدل والإنصاف، وهو ضرورة فطرية قبل أن يكون حاجة اجتماعية. والعقيدة الإسلامية تقوم على الإيمان الجازم بالله تعالى ربّ العالمين، المتصف بالكمال المنزه عن النقص، والإيمان برسوله محمد ﷺ وبالقرآن الكريم وبالغيب كله، بما يدفع المسلم إلى الالتزام بأحكام الشريعة والانقياد لتوجيهاتها. ويُعد التوحيد جوهر هذه العقيدة وأساسها، إذ يقوم على إفراد الله بالعبادة وتنزيهه عن الشبه والنقص، مع الإيمان بكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، وهو ما استقر عليه أهل العلم في قواعد التوحيد الكبرى التي تؤكد تنزيه الله عن كل ما يخطر بالبال، وإثبات كماله المطلق بلا تمثيل ولا تعطيل. وهكذا تتجلى العقيدة الإسلامية بوصفها الأساس الذي قامت عليه حضارة الإسلام، وستبقى بإذن الله قائمة وفاعلة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. (جمعة، ٢٠١٥م).

المطلب الثاني: علاقة العقيدة بالاخلاق:

تُعدّ العقيدة المصدر الأساس الذي تنبثق منه سلوكيات الإنسان وتصرفاته، فهي البنية العميقة التي تُوجّه أفعاله وتحدد مساره الأخلاقي. فمتى استقرت في القلب عقيدة الحق، بما تحمله من قيم الصدق والفضيلة والعفو والتسامح والأمانة، انعكس أثرها بصورة طبيعية على سلوك الفرد، فلا يصدر عنه إلا ما ينسجم مع ما يؤمن به من مبادئ. وعليه فإن الأخلاق التي يظهرها المسلم في تعامله اليومي ليست إلا ترجمة واقعية لمعتقداته، ودليلًا عمليًا على صدق إيمانه وتجذر قناعاته.

ومن هنا يتضح أن العلاقة بين العقيدة والأخلاق علاقة ترابط وتكامل لا انفصام فيها، إذ تسيران معًا في بناء الشخصية الإنسانية، حيث تمثل العقيدة الدافع والمحرك للأخلاق، كما تؤدي دور الرقيب الذي يكبح الانحراف ويمنع الوقوع في المعاصي والشهوات. ويتجلى أثر ذلك في مختلف مجالات حياة المسلم، سواء في تعامله مع أسرته أو جيرانه أو أصدقائه، أو حتى مع من يخالفه الرأي أو يعاديه.

فشأن العقيدة عظيم وأثرها بالغ، إذ إن أي خلل في السلوك إنما يعكس في جوهره اضطرابًا في البناء العقدي. فصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن، وأعمال الجوارح امتداد لما يختلج في القلب من معتقدات. وإذا استقامت العقيدة تزكت النفوس وتهذبت الأخلاق تبعًا لذلك، فاستقامة الإنسان تبدأ من سلامة إيمانه وصدق يقينه. (صقر، ٢٠٠٨م: ١ / ٢١٤), (يالجن، ١٩٩٢م: ١٢٨).

تُشبه الأخلاق في علاقتها بالعقيدة ثمارَ الشجرة، إذ إن ما تُنتجه العقيدة الصادقة من آثار هو سلوك قويم وأفعال نبيلة. ومن هنا يظهر التباين بين الأثر الأخلاقي المنبثق عن العقيدة، وبين ما تفرضه القوانين الوضعية والعقوبات المادية؛ فالأول ينبع من الداخل، تحرّكه رقابة الضمير والإيمان، بينما الثاني يقوم على الخوف من العقوبة ومراقبة الآخرين.

ويُعدّ ارتباط الأخلاق بالعقيدة مصدر قوة يفوق تأثير القوانين الوضعية، لأنها تربط السلوك الإنساني بالمثوبة الأخروية، وهو ما يشكّل دافعًا عميقًا وحافزًا قويًا للمسلم نحو الالتزام والاستقامة. كما يمثل هذا الارتباط حصنًا يحمي الفرد من الانزلاق إلى الرذائل والانحرافات، مما ينعكس إيجابًا على بناء المجتمع بأكمله؛ فإذا التزم الأفراد بالأخلاق المستمدة من عقيدتهم، نشأ مجتمع متماسك وآمن، تسوده روح التعاون والنصح، ويبتعد عن أسباب الجريمة والفساد. (ابراهيم، ٢٠٢٠م: ٢٣).

وقد ظهر هذا الارتباط في مواضع كثيرة من القرآن الكريم وآياته، والتي تبيِّن أثر العقيدة في الأخلاق الفاضلة، والتي دعا إليها القرآن الكريم، نبين منها الاتي: (سوهيلة، ٢٠١٣م: ٤ - ٨).

١ - التحلِّي بالصَّبر: حيث ورد خُلُقُ الصَّبر ومشتقاته والحثُّ عليه والتَّرغيب فيه في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: (مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ) (سورة النحل الاية ٩٦) وقوله تعالى: (أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ). (سورة القصص الاية: ٥٤).

٢ - الطَّاعة: إذ إنَّ المسلم مأمورٌ بالطَّاعة، سواءً كانت لله سبحانه وتعالى أو لرسوله (صلَّى الله عليه وسلَّم)، كما يدخل فيها طاعة الوالدين، ومن الآيات التي حثَّت على هذا الخُلق قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا). (سورة النساء الاية: ٥٩.).

٣ - برُّ الوالدين: أمرنا الله سبحانه وتعالى ببرِّ الوالدين والإحسان إليهما، وقد ورد ذلك في العديد من الآيات مثل قوله تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا). (سورة الاسراء الاية ٢٣ - ٢٤).

٤ - الحفاظ على النَّفس وحمايتها: امرنا الله سبحانه وتعالى بالحفاظ على النفس وحمايتها من كل ما يؤدِّي إلى إيقاع الضَّرر بها، ومن ذلك كان تحريم قتل نفس الغير بدون حقٍّ، كما جاء في قوله تعالى: (وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا). (سورة الاسراء الاية: ٣٣).

٥ - تجنُّب الفواحش: فقد نهى الإسلام عن الفواحش بل حتى عن مجرد الاقتراب منها، لِما في ذلك من إضعاف للنَّفس وفتح بابٍ للزلل والخطأ، وقد ورد النَّهي عن الفواحش في الكثير من الآيات، منها قوله تعالى: (وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ). (سورة الانعام من الاية: ١٥١).

٦ - حماية حق اليتيم: دعا الإسلام إلى حماية حقوق الضُّعفاء، ومن أولئك الأيتام، فقد حذَّر من أكل حقوقهم وأموالهم، قال الله تعالى: (وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ). (سورة الانعام من الاية: ١٥٢).

٧ - الأمانة والعدالة في المُعاملة: دعا الإسلام المسلمين إلى التحلّي بخُلق الأمانة في جميع مناحي الحياة، ومنه قوله تعالى: (وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ). (سورة هود الاية: ٨٥).

٨ - كما أمر بالعدل والإنصاف في التَّعامل مع الغير حتى وإن كان عدوّاً، فقد جاء في قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ). (سورة المائدة الاية: ٨).

٩ - الوفاء بالعهد: أمر الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود ونهى عن نقضها، كما جاء في قوله تعالى: (وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا). (سورة الاسراء من الاية: ٣٤).

١٠ - العدل والإحسان: فقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالعدل والإحسان في كلِّ شيء، ونهى عن الظُّلم والمُنكَر؛ فقد جاء في قوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ

وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ). (سورة النحل الاية: ٩٠).

في السنة النبوية الشريفة حثّ النبي ﷺ المسلمين على التمسك بمكارم الأخلاق، وبيّن بوضوح عمق الصلة بين الإيمان والسلوك، وأن العقيدة الصادقة لا بد أن يظهر أثرها في أخلاق المسلم وأفعاله. ومن الأحاديث الجامعة في هذا المعنى قوله ﷺ: «مَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فلا يُؤْذِ جارَهُ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، ومَن كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أوْ لِيَصْمُتْ» (الجعفي، ١٩٩٣م: ٥ / ٢٢٤٠). ويتضح من هذا التوجيه النبوي أن الإيمان ليس مجرد اعتقاد قلبي، بل هو سلوك عملي يتجلى في إكرام الضيف، وحسن الجوار، وضبط اللسان، مما يدل على أن مصدر هذه الأخلاق واحد وهو الإيمان بالله واليوم الآخر. وكلما تعمقت معاني العقيدة في النفس ازداد أثرها في تهذيب السلوك وتزكية الأخلاق، حتى تغدو الفضائل ثابتة راسخة لا تتغير؛ لأنها متصلة بمنبع الإيمان ومصدر التقوى (زيدان، ٢٠٠١م: ٩٧).كما أن العبادات في الإسلام تؤدي دورًا تربويًا مباشرًا في بناء الأخلاق وتقويم السلوك؛ فالصلاة تُعزز الانضباط والالتزام بالنظام، والصيام يربي النفس على الصبر والتحمل ويغرس فيها الشعور بالآخرين، والزكاة تطهر النفس من الشح والبخل وتدربها على العطاء، أما الحج فهو مدرسة عملية في الصبر وضبط النفس وترك الجدال وسوء القول، ليعود المسلم منها أكثر نقاءً واستقامة (جريشة، ١٩٧٩م: ٢١٨–٢٢٠). وقد أكد النبي ﷺ أن الغاية العظمى من بعثته هي إتمام مكارم الأخلاق، فقال: «بُعِثتُ لأُتَمِّمَ صالِحَ الأَخْلاقِ» (البيهقي، السنن الكبرى، ٢٠١١م: ٢١ / ٢٨). وكانت سيرته ﷺ التطبيق العملي لهذا المبدأ، إذ تجلت أخلاقه في كل تفاصيل حياته، مما أسهم في نجاح دعوته وانتشارها. وقد أثنى الله تعالى على خلقه العظيم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، كما أمر باتباعه والاقتداء به فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١). وتجدر الإشارة إلى أن أخلاق الإسلام تتسم بالثبات والدوام، فهي صالحة لكل زمان ومكان، لا تتغير بتغير الظروف ولا تتبدل بتبدل البيئات. (جريشة، ١٩٧٩م: ٢٢٢).

المطلب الثالث: الاساس الاعتقادي للاخلاق:

أولاً: اركان الاساس الاعتقادي:

الركن الأول يتمثل في الإيمان الجازم بوجود الله تعالى، الخالق للكون والإنسان، والمُوجد

للحياة والموت، والمدبّر لكل ما في الوجود. فهو سبحانه العليم بكل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، لا يغيب عن علمه مثقال ذرة، حتى ما يجول في أعماق النفوس من نيات وأفكار، خيرها وشرها، فإنه سبحانه محيط به علمًا و إحاطة وقد قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ) (سورة ق الاية: ١٦). الثاني أن الله منذ أن خلق الإنسان فوق هذا الكوكب عرفه بنفسه، وعرفه طريق الخير والشر والحق والباطل برسالات أوحى بها إلى من اختارهم من الناس كما شاء، قال تعالى: (سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ) (سورة الاعلى الاية: ١ - ٣), (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ) (سورة البلد الاية: ٨ - ١٠), (تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (سورة هود الاية: ٤٩), (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (سورة الشورى الاية: ٥٢), ثم إن الله خلق في الإنسان قدرة لإدراك تلك الحقائق ونصب دلائل على هذه الطبيعة يدركها من يتأمل فيها ويبحث عنها في ثنايا هذا الوجود بوحي الله وبوحي من عقله قال تعالى: (سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) (سورة فصلت الاية: ٥٣) وبناءً على ذلك، فقد كلّف الله تعالى الإنسان باتباع الحق والخير، واجتناب الباطل والشر، وبيّن له ما له من حقوق وواجبات تجاه خالقه، وكذلك تجاه سائر المخلوقات من الإنس وغيرهم. كما أوضح سبحانه ما يجب الابتعاد عنه من المحرمات والمنهيات، وجعل هذا البيان قائمًا على التمييز بين الحق والباطل من جهة، وبين الخير والشر من جهة أخرى، ليكون الإنسان على بصيرة في اختياراته وسلوكه.

أما الركن الثالث من أركان الإيمان فيتمثل في الإيمان بالحياة بعد الموت، وهي حياة أخروية تنقسم إلى نعيم وجحيم؛ فالنعيم جزاء لمن التزم الحق، وعمل الصالحات، واجتنب المحرمات في الدنيا، بينما يكون الجحيم مصير من اتبع الباطل، وانغمس في الشر والمعاصي. وتأتي هذه الجزاءات بعد حساب دقيق وعادل يقوم به الخالق العليم، الذي يحاسب كل إنسان على أعماله، صغيرها وكبيرها، دون أن يضيع منها شيء (يالجن، ١٩٩٢م: ١٢٥). وقد قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ) (سورة يس الاية: ١٢), (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ) (سورة الزلزلة الاية:

٧ - ٨), إذن فهذه الحياة ميدان عمل واختبار للإنسان لمن يريد الخير ولمن يريد الشر (ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ) (سورة الملك الاية: ٢) إنه ابتلاء فعلا لمن يريد اتباع منهاج الله في الحياة ولمن يريد الانحراف عنه وتلك الحياة الأخرى مكافأة وجزاء لعمل الإنسان في هذه الحياة من خير أو شر. (يالجن، ١٩٩٢م: ١٢٥).

ثانياً: اهمية الاساس الاعتقادي:

يشكّل هذا الأساس العقدي ركيزةً محورية في بناء المنظومة الأخلاقية في الإسلام، إذ يُعدّ الدعامة التي يُستند إليها في تأسيس النظام الأخلاقي وضمان الالتزام به. فبدونه تفقد الأخلاق قدسيتها وتأثيرها في النفس، ولا يمكن أن تتحول إلى سلوك عملي منضبط في السر والعلن إلا إذا ترسّخت في القلوب إيمانًا صادقًا وعميقًا. وقد أشار فروبل إلى ذلك بقوله: «إن الإيمان يجعل الإنسان يعيش ساكنًا قويًا في كل الأحوال وظروف هذه الحياة، وعن طريق التعليم الديني يمكن أن يعرف الإنسان واجباته والقيام بأدائها» (حكيم، ١٩٢٢م: ١٠٤–١٠٥).

ولا يقتصر أثر هذا الأساس على السلوك الأخلاقي فحسب، بل يمتد ليكون قاعدةً للحياة الإنسانية ذاتها؛ إذ لا معنى للحياة المتوازنة دون هذا الإيمان الذي يمنحها الاستقرار والاتجاه. ومن يتأمل الفكر الوجودي لدى غير المؤمنين بالله واليوم الآخر يلحظ ما يعانونه من قلق واضطراب داخلي، خاصة عند تناولهم لقضايا الأخلاق، حيث يحاولون تفسير ذلك بردّه إلى الطبيعة أو إلى طبيعة الحياة، إلا أن الواقع لا يؤيد هذا التفسير، إذ لا تظهر هذه الحالة على نحوٍ عام عند غيرهم.

ويُعزى هذا الاضطراب في جوهره إلى غياب الإيمان، إذ إن النفس الإنسانية تحمل فراغًا لا يملؤه إلا الاعتقاد الصحيح. ولهذا، فإن فقدان العقيدة يؤدي إلى الشعور بالنقص والقلق، وقد يدفع بعض الأفراد في حالات معينة إلى محاولات إنهاء الحياة، سواء بالانتحار أو الانغماس في سلوكيات مدمرة كالإدمان، وهو ما يمثل هروبًا غير مباشر من الواقع.

وتؤكد الشواهد أن من يقدمون على الانتحار لا يكون الدافع لديهم غالبًا فقرًا أو مرضًا أو نقصًا في متاع الحياة، بل قد يكونون من أصحاب الثراء والجاه، غير أن ما ينقصهم هو الطمأنينة الداخلية التي يمنحها الإيمان والعقيدة السليمة. ومن هنا يتضح أن غياب هذا الأساس هو العامل الأبرز في فقدان التوازن النفسي. كما يتبين أن العقيدة تضفي على القيم الأخلاقية طابع القداسة، وترفعها من كونها مجرد أنظمة وضعية لتنظيم العلاقات إلى كونها التزامًا نابعًا من الإيمان والضمير، وهو ما يميز القوانين الأخلاقية عن القوانين الوضعية في جوهرها وأثرها.

(يالجن، ١٩٩٢م: ١٢٧ - ١٢٩):

فالأولى: قدسية القوانين الأخلاقية تؤدي إلى نتيجتين أساسيتين؛ أولاهما: تعظيم هذه القوانين وإجلالها في النفس، مما يمنحها سلطة داخلية فاعلة تتحكم في سلوك الإنسان وتوجه تصرفاته في السر والعلن على حد سواء. وثانيتهما: أن هذه القوانين تُحدث أثرًا نفسيًا مباشرًا في الإنسان، إيجابًا أو سلبًا، تبعًا لالتزامه بها أو مخالفته لها؛ فالتطبيق يولّد شعورًا بالراحة والانشراح والطمأنينة في أعماق النفس، بينما يؤدي الإخلال بها إلى الإحساس بالضيق والوخز والكآبة، بغض النظر عن مدى اطلاع الآخرين على تلك الأفعال.

ويرجع ذلك إلى أن الإحساس بقدسية هذه القيم يجعل من الضمير رقيبًا داخليًا دائمًا على سلوك الإنسان، فلا يرتبط الالتزام بها بالمصلحة أو بالمظهر الاجتماعي كما هو الحال في القوانين الوضعية، بل يتجاوز ذلك إلى مستوى أعمق يقوم على الشعور بالواجب وراحة الضمير والاستجابة للدافع الأخلاقي الداخلي.

ثانيًا: تسهم القوانين الأخلاقية في تحقيق سعادة الإنسان؛ لأنها تجمع بين الجوانب المادية والمعنوية في آنٍ واحد، بينما تفتقر القوانين المدنية في الغالب إلى هذا التكامل، كما أنها لا تُحرّك الإنسان نحو الالتزام بها بذات القوة والدافع الذي توفره القيم الأخلاقية المستندة إلى أساس اعتقادي راسخ.

ثالثًا: تمتاز القواعد الأخلاقية بطابعها العام والثابت من حيث الأصول، مما يجعلها أوسع أثرًا وأكثر استمرارًا من القوانين الوضعية، سواء من جهة التأثير أو من جهة التطبيق العملي.

رابعًا: إن القوانين الأخلاقية هي التي تمنح حياة الإنسان طابعها المميز، إذ تصوغ سلوكه وتوجّه مساره وفق روحها وقيمها العليا، بينما تعكس القوانين الوضعية رؤية المجتمع ورغبات أفراده وظروفه المتغيرة. ومن ثمّ تظهر في المجتمع روح القيم السائدة فيه؛ فإن كان خاضعًا للتوجيه الأخلاقي ظهرت فيه الفضائل والاستقامة، وإن كان محكومًا بالمصالح والرغبات غلب عليه الطابع المادي. وبناءً على ذلك، يتبين أن العقيدة بوصفها أساسًا للأخلاق تمثل المحرك الأقوى للسلوك الإنساني، فهي الدافع إلى الخير، والرادع عن اتباع الهوى، كما أنها المصدر الذي تستمد منه القيم الأخلاقية قدسيتها وفاعليتها، ومنها يتكوّن الضمير الأخلاقي ويستمد حيويته.

وقد أقرّ الدكتور ألكسيس كارل بهذه الحقيقة، مبينًا أن العقيدة تضفي على الأخلاق قوة

وفاعلية لا تتوافر في الأخلاق المدنية، إذ يقول: «إن الفكرة المجردة لا تصبح عاملًا فعالًا إلا إذا تضمنت عنصرًا دينيًا، وهذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد يستحيل معه المقارنة، ولذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائمة إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية» (كارل: ١٤٠).

ومقدار ما تُدعَّم الأخلاق بالعقيدة وتُبنى عليها، بقدر ما تترسخ على أسس صلبة، وكلما نُمي الإيمان في نفوس الأجيال اقترنت القيم الأخلاقية بالدافع الداخلي القوي، مما يعزز الالتزام بها والتضحية من أجلها، أما إهمال هذا الجانب فيؤدي إلى ضعف المنظومة الأخلاقية واضطرابها. (يالجن، ١٩٩٢م: ١٢٩).

الخاتمة

١. أهم النتائج التي توصل اليها في هذا البحث هو الاتي: تُعدّ العقيدة الأساس الذي يقوم عليه الإيمان، فهي القاعدة الراسخة التي ينطلق منها، إذ يستقر الإيمان في القلب، وتترسخ العقيدة في أعماقه، ولا يكتمل أثرها إلا إذا تجسدت في الواقع سلوكًا ظاهرًا وعملاً ملموسًا، وإلا أصبحت مجرد اعتقاد ضعيف لا أثر له.

٢. تمثل الأخلاق مجموعة من المبادئ والقيم التي تضبط السلوك الإنساني وفق ما جاء به الوحي لتحقيق غاياته، كما تُعرّف بأنها سلوكيات وطبائع وصفات إنسانية، إذا استقامت وصَلُحت انعكست على أقوال الفرد وأفعاله، فكانت دليلًا واضحًا على قوة إيمانه وسلامة فطرته وصدق التزامه بما يرضي الله تعالى.

٣. تحظى الأخلاق في الإسلام بمكانة رفيعة، يتجلى ذلك في كون الرسالة الإسلامية جاءت لإتمام مكارم الأخلاق ونشر الفضائل، كما أنها من أعظم ما يثقل ميزان الحسنات يوم القيامة، إضافة إلى كثرة الآيات القرآنية التي تحث على الأخلاق الفاضلة وتمجد أهلها، وتنهى عن الرذائل وتذم أصحابها.

٤. لقد جعل الإسلام العقيدة المنطلق الأول للأخلاق الفاضلة، حيث إن ارتباط الأخلاق بالعقيدة ارتباط وثيق ومؤكد في التصور الإسلامي، وهو ما يضمن ثبات القيم الأخلاقية واستقرارها ويحميها من التغير أو العبث.

٥. إن حاجة الإنسان إلى العقيدة تفوق حاجته إلى الطعام والشراب، فهي مصدر حياة القلب وطمأنينة النفس واستقامة الجسد، وبها يزدهر الفرد والمجتمع، وبدونها تنحدر الحياة إلى مستوى بدائي تسوده الفوضى، حيث يطغى القوي على الضعيف، ويعيش الإنسان في قلق واضطراب مهما توفرت له أسباب المتعة والرفاه.

٦. وتُعد الأخلاق ثمرةً طبيعية للعقيدة، فهي كالثمار بالنسبة للشجرة؛ إذ إن العقيدة السليمة تُنتج سلوكًا قويمًا وأفعالًا راقية تعبّر عن صفاء الإيمان وصدق الانتماء.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابادير حكيم. (١٩٢٢م). التربية الاخلاقية.، مصر.

ابن أبي العز الحنفي. (١٩٨٨م). شرح العقيدة الطحاوية (المجلد ٩). (جماعة من العلماء، المحرر) بيروت، لبنان: المكتب الاسلامي.

أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. (١٩٥٥ م). صحيح مسلم. (محمد فؤاد عبد الباقي، المحرر) القاهرة، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

ابو الفتح ناصر الدين المطرزي. (١٩٧٩م). المغرب في ترتيب المعرب (المجلد ١). (محمود فاخوري - عبد الحميد مختار، المحرر) حلب، سوريا: مكتبة اسامة بن زيد.

أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. (٢٠٠٣م). السنن الكبرى (المجلد ٣). (محمد عبد القادر عطا، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي. (٢٠١١ م). السنن الكبرى. (الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، المحرر) القاهرة، مصر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية.

أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي. (٢٠١٨م). سنن النسائي المجتبى (المجلد ١). (محمد أنس مصطفى الخن محمد رضوان عرقسوسي، المحرر) دار الرسالة العالمية.

أبـو عبـد الله محـمـد بـن إسـمـاعـيـل الـبـخـاري الـجـعـفـي. (١٩٩٣ م). صـحـيـح الـبـخـاري (المجلد ٥). (مصطفى ديب البغا، المحرر) دمشق، ، سوريا: دار اليمامة، دار ابن كثير.

أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. (٢٠٠٩م). الجامع الكبير «سنن الترمذي» ٤ / ١٠٣ (المجلد ١). (شعيب الأرنؤوط، المحرر) دار الرسالة العالمية.

ابو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد المحسن. (١٩٩٧م). مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية (المجلد ١٢).

أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي. (١٩٨٧م). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية, (المجلد ٤). (احمد عبد الغفور عطا، المحرر) بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.

احمد بن فارس بن زكريا الرازي. (١٩٧٩م). معجم مقاييس اللغة. (عبد السلام محمد هارون، المحرر) دار الفكر.

الامام احمد بن حنبل. (٢٠٠١م). مسند الامام احمد بن حنبل (المجلد ١). (شعيب الأرنؤوط، المحرر) القاهرة، مصر: مؤسسة الرسالة.

الدكتور عبد الكريم زيدان. (٢٠٠١م). أصول الدعوة (المجلد ٩).: مؤسسة الرسالة.

جامعة المدينة العالمية. (٢٠٠٩م). اصول الدعوة.

د. اليكسيس كارل. (بلا تاريخ). تأملات في سلوك الانسان. (محمد القصاص، المترجمون) القاهرة، ، مصر: مكتبة مصر.

شحاتة محمد صقر. (٢٠٠٨م). دليل الواعظ إلى أدلة المواعظ (موضوعات للخطب بأدلتها من القرآن الكريم والسنة الصحيحة), مع ما تيسر من الآثار والقصص والأشعا. البحيرة، ، مصر: دَارُ الفُرْقَان للتُرَاث.

صالح بن عبد الرحمن بن عبدالله الاصرم. (١٤١٣ه). الاسئلة والاجوبة في العقيدة (المجلد ١). الرياض، السعودية: دار الوطن.

عبد القادر بن محمد عطا صوفي. (١٤٢٣ه). المفيد في مهمات التوحيد (المجلد ١). دار الاعلام.

عثمان جمعة ضميرية. (١٩٩٦م). مدخل لدراسة العقيدة الاسلامية (المجلد ٢). (عبد الله بن عبد الكريم العبادي، المحرر) مكتبة السوادي.

علي ابو بكر ابراهيم. (٢٠٢٠م). المنظومة الأخلاقية في الإسلام وأثرها في تحقيق الأمن الفكري.

علي جريشة. (١٩٧٩م). ساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي (المجلد ٣). ٢١٨ - ٢٢٠: دار الوفاء.

علي جمعة. (٢٠١٥م). العقيدة الاسلامية (حاجة الانسان للاعتقاد). جريدة الاهرام.

عمر سليمان الاشقر. (١٩٩٩م). العقيدة في ضوء الكتاب والسنة (المجلد ١٢). عمان، الاردن: دار النفائس.

عمر سليمان الاشقر. (بلا تاريخ). العقيدة في ضوء الكتاب والسنة.

قدور إبراهيم و عمار المهاج. (٢٠٠٤م). معاني الجوانب الأخلاقية في الإسلام. دار الاديب.

لغرس سوهيلة. (٢٠١٣م). علاقة الإيمان بالأخلاق في الدين الإسلامي - سورة الأنعام نموذجا . الصفحات ٤ - ٨.

مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى. (٢٠٠٥م). القاموس المحيط (المجلد ٨). (مكتب تحقيق التراث، المحرر) بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف. (١٤٣٣هـ). موسوعة الأخلاق الإسلامية.: الدرر السنية.

محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد. (١٤١٨هـ). الأسباب المفيدة في اكتساب الأخلاق الحميدة (المجلد ١).: دار ابن خزيمة.

محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى. (١٤١٤هـ). لسان العرب (المجلد ٣). بيروت، لبنان: دار صادر.

محمد سيد طنطاوي. (١٩٣٨م). العقيدة والاخلاق. نهضة مصر للطباعة والنشر.

مقداد يالجن. (١٩٩٢م). الرياض، ، السعودية: دار عالم الكتب للطباعة والنشر.

نجوى ابو ترك. (٢٠٢٢م). اثر الايمان على السلوك الانساني (المجلد ١). سوريا: دار المعارف الاسلامية الثقافية.